أثر الإسلام في التطور الدلالي للألفاظ العربية - كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي (ت ٣٢٢ ه) أنموذجا -

خديجة روابح ـ مريم بوسيف

إنّ التراث العربي حافل بالكثير من العلوم والموضوعات المهمة التي يجب أن تنال عناية الدارسين وتسترعي اهتمام الباحثين لاسيما مجال "فقه اللغة العربية"، فهو مفتاح سائر العلوم وهو المدخل لفهم حضارة العرب وثقافتهم وطريقة تفكيرهم.

ويكتسب هذا المجال أهميته كونه "مفتاحا لفهم الخطاب الإلهي المنزل بهذا اللسان العربي المبين، فرسالة القرآن الكريم جاءت شاملة للناس أجمعين، وهذا ما يجعل فهم هذا الخطاب ومعرفة خصائص اللسان العربي من الواجبات المهمة، وتعلمه ضرورة لا غنى عنه على مستوى الفرد والجماعة للتوجه نحو البحث عن أسرار العربية والتنقيب عن جوهرها ومعرفة خصائصها وأساليبها"١.

والكشف عن مميزات اللفظة العربية، وبيان أصولها، أمر جليل؛ إذ أن مستقبل العربية مرتبط بزيادة الإنتاج الفكري الذي يصدر فيها في كل فروع المعرفة المعاصرة، ومنها دراسة الألفاظ العربية وأصولها وتطورها الدلالي.

وعناية علماء العربية قديما تفوق كل عناية، وحرصهم على كشف أسرارها واستخلاص خصائصها أساسه ومنطلقه "القرآن الكريم"، كتاب العربية الأول، فجميع الدراسات العربية قائمة عليه، ناهلة من مشاربه، معتمدة عليه في نشأتها وتطورها٢.

فقد كان القرآن الكريم من أخطر الحوادث وأهمها في حياة اللغة العربية، وذلك لأنه أعطى نموذجا جديدا وممتازا لهذه اللغة ودفعها إلى حضارة جديدة كما كان ولازال تتويجا لما وصلت إليه العربية من نضج ونمو، فعكس في ألفاظه وتراكيبه كل الخصائص اللغوية الدقيقة التي وصلت إليها العربية عبر حياتها الطويلة، بل لقد أضاف إليها القرآن الكريم زادا جديدا وأظهر كل القدرات اللغوية في التعبير والتصوير. ومن ثم اعتبر الباحثون قديما وحديثا أن أهم حدث في تاريخ هذه اللغة هو نزول القرآن وظهور الإسلام٣.

وتآليف أولئك الإعلام - لمن أمعن النظرة وأطال الفكرة - لا تخلو من تنبيهات على التطورات القديمة لدلالات الألفاظ، لكنها صعبة المنال إلا على المتأمل. وقد كان أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ ه) من بينهم، بل لو قلنا:إنه من أعناهم بذلك في كتابه "الزينة في الكلمات الإسلامية العربية" لم نشطط؛ لأنه اتبع منهجا معينا على التأصيل فكان انتخابه حقا علينا.

فكل حقيقة يظفر بها عن تطور دلالة لفظة عربية، تخبرنا بأشياء عن تاريخ العرب المجهول ربما ما كنا لنعلمها لولاها ومن ثم ازداد للعرب فهما وبالعربية علما. من أجل ذلك عقدنا العزم أن نمضي قدما – على بينة وبصيرة – في بحثنا هذا مستحقين التحقيق والتدقيق، وقد أجاءنا إليه أسئلة ظلت تؤزنا أزا، فتعالت الهمة لرفع ظلمها، وهذه بعضها: هل بقيت الألفاظ التي استعملها الإسلام محافظة على نفس المعنى الوصفي الذي كان لها في العصر الجاهلي أم أنها بنزول القرآن لبست حلة جديدة تتوافق والدين الجديد؟ بم كان يعبر أبو حاتم الرازي عن تطور دلالات الألفاظ؟ وما مستنده الذي انبعثت عنه آراؤه أهو شواهد صحيحة بلغته فتفحصها وأغفلها غيره أم كان ذلك من أبي حاتم تفرسا؟

شكلت الإسماعيليةس في سياقها التاريخي حركة علمية وفكرية واسعة وامتد نشاطها إلى مناطق عديدة من البلدان العربية، وقد أنجبت دعاة كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف من بينهم أبو حاتم الرازي داعي الإسماعيلية في بلاد الري. وبالرجوع إلى كتب التراجم والسير نجد

أنها قد خلت تماما من أي ذكر لهذا الإمام اللغوي الكبير والذي وصلنا من ترجمته أسطر قليلة نقلها ابن حجر العسقلاني من كتاب "تاريخ الرّي" لابن بابويه وهو كتاب مفقود ولم يصلنا مطبوعا حتى الآن، والذي ذكره ابن حجر في ترجمته يدل على أنه لم يطلع على مصدر ينقل عنه ترجمة الرازي غير كتاب ابن بابوية هذا ولقصر الترجمة ننقلها كاملة، يقول ابن حجر: "أحمد بن حمدان بن أحمد الورساهي أبو حاتم الكشي ذكره أبو الحسن بن بابويه في تاريخ الرّي وقال: كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة وسمع الحديث كثيرا وله تصانيف، ثم أظهر القول بالإلحاد وصار من دعاة الإسماعيلية وأظل جماعة من الأكابر ومات في سنة ٣٢٢ ه"٤.ولعلّ فيما ذكره ابن حجر من تحوله العقدي إلى مذهب الإسماعيلية ما يبين لنا السبب في إحجام كثير من المؤرخين عن ترجمة أبي حاتم الرازي، فبانتقال الرازي إلى عقيدة الإسماعيلية أصبح في نظر أهل السنة من غير المرغوب فيهم لفساد عقيدتهم ومهما يكن من أمر، فإن أبا حاتم كان علما من أعلام النهضة العلمية مثله في ذلك مثل أبي يعقوب السجزي وناصر خسرو، جمع من ألوان المعارف ما جعله من كبار رجال الدعوة على الخصوص، من فقه بلغة النص الديني، وقراءة للفلسفة القديمة، وإلمام بعلوم الحديث والفقه ودرس واع للشعر العربي القديم٥.

ولاشك أنّ آثار هذه الثقافة على تعدد مناحيها واتجاهاتها قد ظهرت في تآليف الرجل الداعية لاسيما مؤلفه "الزينة في الكلمات الإسلامية العربية".

إنّ الكتاب ليس له خطر الكتب الإسماعيلية الأخرى وإنما "هو مصنف يبحث في اللغة وفي المصطلحات الدينية، اصطبغ باهتمامات أبي حاتم اللغوية، ألفه ليفيد منه قارئه في مجالس العلم والمناظرات الكلامية مسترشدا به في فهم كثير من المصطلحات الدينية التي يغلب دورانها في مثل هذه المجالس"٦.

كتاب أبي حاتم عبارة عن ثلاثة أجزاء: الجزءان الأولان من تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني من علماء اليمن، يتحدثان عن الكلمات العربية الإسلامية ومعانيها قبل نزول القرآن، أما القسم الثالث فهو بتحقيق عبد الله سلّوم السامّرائي وهو القسم المتعلق بأصحاب الأهواء والمذاهب، والذي من خلاله وضح الفِرق الإسلامية والفِرق التي تفرعت عنها من أهل الأهواء والنِّحل المختلفة.

لم يتبع أبو حاتم في ترتيب كتابه نمطا بعينه من أنماط التصنيف المعروفة في هذا المجال، وهذا لا يعني افتقاده للتصنيف الموضوعي، فالكلمات التي عرض لها المؤلف تندرج تحت قطاع واحد من قطاعات الثروة اللفظية، هو قطاع الحياة الدينية٧.

بدأ الرازي حديثه عن اللغات عامة وفضلها وضرورتها ثم بعد أن هيأ الذهن وأقنعه بضرورة اللغة، بين أن أفضل اللغات هي العربية والعبرية والسريانية والفارسية، وبعد أن أثبت فضلها على اللغات الأخرى، فضّل العربية على هذه اللغات الأربع٨.

جعل الرازي الحديث عن العربية في مقدمة حديثه؛ لأن موضوع كتابه يدخل في صميم اللغة، فمهد بها، ثم انتقل للحديث عن الشعر وفضله، حيث عقد له فصلا قبل الشروع في مادة الكتاب أسماه (فضيلة الشعر)٩؛ لما فيه من النفع العظيم، ولأنه موضوع شواهده، ثم انتقل بعد ذلك إلى موضوع كتابه وهو الألفاظ الإسلامية العربية، فمهد لها بالحديث عن أهميتها وضرورة معرفة معانيها وفهمها فهما صحيحا١٠.

بعد هذا التمهيد لضرورة معاني الألفاظ الإسلامية العربية، انتقل أبو حاتم متناولا أسماء الله الحسنى الواحد تلو الآخر، فبدأ بالحديث عن البسملة؛ لأنها استفتاحية ولكثرة استعمالها ثم الحديث عن لفظ الجلالة " الله "؛ لكثرة دورانه في اللسان، ثم تحدث عن لفظ "الرب "، ثم عن " الواحد الأحد. "١١.

وهذا التقديم في ذكر أسماء الله الحسنى إنما هو أساس الدعوة في توحيد الألوهية، ولأن هذه الأسماء دلت على الوحدانية لذلك كان حقها التقديم.

وتسلسل الرازي في ذكر بقية أسماء الله الحسنى ثم ختم كتابه بالحديث عن قضايا كانت محط خلاف بين العلماء، وهي (الخلق)، و(القدر)، و(القضاء)، و(القلم)، و(الكرسي)، و(العرش)، و(الملائكة)، و(الجن)، و(الإنس)، و(الشيطان).

اتبع الرازي في كتابه أسلوبا مميزا حيث جاء موافقا لعصره وواضحا لخلفه، وكان يكثر الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأشعار خاصة الجاهلية منها.

إن القارئ لمقدمة محقق كتاب "الزينة" يرى أن هذا الكتاب الذي ألفه صاحبه في القرن الرابع الهجري أول مرجع يتضمن الأسماء العربية التي نطق

بها القرآن، والأسماء التي اصطلح عليها المسلمون وقد حاول المؤلف في هذا المصنف أن يجمع من شتى الألفاظ العربية ألفاظا تغيرت مدلولاتها ومعانيها في العصر الإسلامي عما كانت عليه في العصر الجاهلي، وبعمله هذا وضع اللبنة الأولى في علم معاني الأسماء العربية (Arabic Islamic Simantics)١٢.

تنبه صاحب "الزينة"إلى المستويات اللغوية للمفردات التي عالجها في كتابه، وأنّ منها ما هو جاهلي عرفته العرب قبل الإسلام بألفاظه ومعانيه، ومنها ما هو إسلامي جاء به القرآن وعرفت العرب أصوله ومواده إذ يقول: "والذي نريد تفسيره من معاني الأسماء: فمنها ما هي قديمة في كلام العرب، اشتقاقاتها معروفة، ومنها أسام دل عليها النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الشريعة ونزل بها القرآن، فصارت أصولا في الدين وفروعا في الشريعة لم تكن تعرف قبل ذلك، وهي مشتقة من ألفاظ العرب وأسام جاءت في القرآن لم تكن العرب تعرفها ولا غيرهم من الأمم مثل: تسنيم، وسلسبيل، وغسلين، وسجين، والرقيم، وغير ذلك..."١٣.

ومن مظاهر التطور الدلالي التي تفطن إليه أبو حاتم الرازي في كتابه "الزينة" -وهي قطب الرحى ومربط الفرس من هذه الدراسة- ما نسميه بتخصيص الدلالة، ونعني بهذا النوع "كون المعنى الأصلي للكلمة عاما ثم خصص في حيز أضيق مما كان عليه في الأصل"١٤. ومن أمثلة ذلك مما ذكره أبو حاتم لفظ (النكاح)، في أصل معناه يدل على التزويج إلا أن هذه الدلالة عامة خصصت فأصبح اللفظ دالا على المجامعة حلالا، يقول أبو حاتم: "النكاح هو التزويج حلالا وهو في الأصل اسم للتزويج وهو أن تذكر المرأة للرجل بمهر فيكون أحدهما زوجا لصاحبه ثم صار اسما للمجامعة حلالا"١٥.

وكما يصيب التخصيص دلالة بعض الألفاظ قد يصيب التعميم دلالة بعضها الآخر، ونقصد بالتعميم "أن يصبح عدد ما تشير إليه الكلمة أكثر من السابق أو يصبح مجال استعمالاتها أوسع من قبل"١٦.

ومن أمثلته في كتاب "الزينة" ما قاله الرازي في لفظ الإهلال "وأصل الإهلال من التكبير والتهليل، وهو أن يقول: لا إله إلا الله، الله أكبر، فإذا قال ذلك فقد هلل وكبر، ويفعل الناس ذلك في كثير من أمورهم إذا اجتمعوا فيها عند بشارة أو وليمة أو غير ذلك ويرفعون الصوت فقيل لكل من رفع صوته قد أهّل واستهلّ وإن لم يقل لا إله إلا الله، ومن ذلك قيل استهلّ الصبي إذا سقط من بطن أمه فصاح وبكى، وأهلّ الرجل إذا رفع صوته بالتلبية"١٧.

فالتغير الدلالي الذي حدث للفظ (الإهلال) أنه كان يطلق على الذي يهلل ويكبر ثم عممت دلالته حتى أصبح يطلق على كل من رفع صوته.

يكاد يتفق الباحثون في نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوسات ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بحكم تطور العقل الإنساني ورقيّه فكلما ارتقى التفكير العقلي عند الإنسان جنح إلى استخدام الدلالات المجردة وتوليدها والاعتماد عليها في الاستعمال١٨.

ومن نماذج انتقال الدلالة من الحسي إلى المجرد في كتاب "الزينة" ما نجده في كلمة (غفر) فأصل معناها الستر والتغطية وهو معنى حسي ثم تطورت دلالتها في الإسلام إلى معنى الصفح والتجاوز عن الذنوب هو أمر معنوي. يقول أبو حاتم في معنى (الغفور): "والمغفرة الستر، كأنه يستر ذنوب العباد إذا رضي عنهم فلا يكشفها للخلائق... وأصله من غفرت الشيء إذا غطيته..."١٩.

ومما سبق ندرك تنبه أبي حاتم لدلالات الألفاظ في كتابه "الزينة" ودقق في بيان ما وصلت إليه اللفظة من تطور في المدلول مع بيان المعنى الأصلي لها. ولا شك في أن هذا التأصيل للدلالة والوقوف على تطورها يعد من أهم الأعمال الدلالية التي التفت إليها القدماء.

النتائج:

- إنّ التطور في اللغة يحدث بسبب عوامل عديدة تاريخية، ودينية، واجتماعية، ونفسية، وهذا التطور في المعنى يخلّف عدة مظاهر منها كون المعنى أوسع من المعنى القديم أو أضيق منه، أو مساويا له.
- إنّ التطور، وأن كان يشمل اللغات كلها إلا أن ما أثرى اللغة العربية، وأغنى تطورها اللغوي والدلالي هو مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم، وقد لاحظنا ذلك واضحا في عدوله عن الألفاظ النابية إلى ألفاظ عذبة لائقة بنفوس مؤمنة مهذبة وفي استعماله أيسر الألفاظ على النطق وأبينها في الدلالة على المعنى و أحرصها على مطابقة القول لمقتضى الحال، فأضحت اللفظة القرآنية كائنا جديدا حيا متميزا عن اللفظة المعجمية.

- في تغيير الإسلام لدلالات الألفاظ بالتوسيع أو التضييق أو النقل دليل على طواعية اللغة في دلالتها ما دامت دلالة اللفظ ومدلوله يسمح بذلك، ولا نحسب أن هذا نقص في اللغة العربية بل رصيد من الميزات يضاف إليها؛ لأنها تستطيع أن تضمن لنفسها مقومات البقاء، والقدرة على استيعاب المستجدات من المعاني والأفكار مع المحافظة على المجال العام للدلالة.
- تشير أخبار أبي حاتم على قلتها أنه كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة والحديث وله تصانيف نقل عنها العلماء في مؤلفاتهم.
- هدف الرازي من تأليف كتابه إلى إفادة الأدباء والفقهاء في بعض الكلمات التي يرى في تعلمها نفع كبير وزينة.
- استفاد الرازي في تأليف كتابه من مصادر مختلفة ومتنوعة من أهمها: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكتب اللغة ودواوين الشعر.
- أسهم بكتابه "الزينة" في جمع مفردات اللغة ودراسة تطور دلالتها، محاولا إرجاع الكثير منها المشتركة في حروفها إلى معنى أصلي عام منه اشتقت تلك المفردات.
- لكتاب"الزينة"أهمية بالغة في مجال الدرس اللغوي فهو كتاب في علم الأسماء ومعانيها في نطاق إسلامي محدود.

وأخيرا وليس آخر فإن ما وجده علم الدلالة من عناية في العصر الحديث من وضع للنظريات والأسس وظهور المدارس اللسانية المختلفة تبعا للمناهج التي تتبعها كل هذا يجعلنا ننادي بألا تبقى جهود القدماء مسهوّا عنها في ظل الانشغال بنظريات المحدثين بل ينبغي العكوف على هذا التراث وإخراجه للناس وبيان ما فيه من إضاءات سنجدها أرضا خصبة للبحث، لما فيها من آراء عميقة وتحليلات واعية لكثير من الجوانب اللغوية.

المراجع:

١- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٢، ص ٤٥.

٢- ينظر أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، دار المعارف، مصر، ط٤، دت، ص ١١٦.

٣- ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٢، ص ١٩- ٣٥. فرقة من فرق الشيعة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ظهرت في حدود سنة ١٤٨هـ/ ٨٦٥م ويطلق عليها كذلك الباطنية لأنهم يقولون إن للقرآن ظاهرا وباطنا، ويفسرونه حسب أهوائهم، ويقولون أن المعاني الباطنية لا يدركها إلا الأئمة.

٤- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط١، ٢٠٠٢، ج١، ص ٤٤٨.

٥- ينظر تراث فارس لجماعة من المستشرقين، ترجمة السيد يعقوب البكر وآخرون، طبع عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٩، ص ١٢١.

٦- رياض العشيري، التصور اللغوي عند الإسماعيلية، دراسة في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٧٤.

٧- ينظر المرجع نفسه، ص ٨٠.

٨- ينظر أبو حاتم الرازي، الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحقيق حسن بن فيض الله الهمداني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط١، ١٩٩٤، ص ٧٢- ٧٤.

٩- ينظر المصدر نفسه، ص ٩٣.

١٠- ينظر المصدر نفسه، ص ١٣٤.

١١- ينظر المصدر نفسه، ج٢، ص ١٦٥.

١٢- ينظر المصدر نفسه، ج١، مقدمة المحقق، ص ١٧.

١٣- المصدر نفسه، ص ١٤٠.

١٤- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٦، ص ٢٤٣.

١٥- أبو حاتم الرازي، الزينة، ج٢، ص ٤٢٧.

١٦- عبد الكريم محمد حسن جبل، في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، ١٩٩٧، ص ٢٣٢.

١٧- أبو حاتم الرازي، الزينة، ج٢، ص ٣٨٦.

١٨- ينظر إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٨٤، ص ١١٨.

١٩- أبو حاتم الرازي، الزينة، ج٢، ص ٢٦٧.